مجلـة الحكمة للدراسات التربوية والنفسية
Eissn :2602-5248 Issn : 2353-0456
المجلد 1 / العــدد: 03 (2013)، ص 06 - 27

مسألة المراهقة بين الصورة النفسانية للذات ونمط الوجود الاجتماعي

✍ الدكتور الطاهر الابراهيمي
جامعة محمد خيضر- بسكرة – الجزائر

تاريخ الاستلام: 2013/02/10 تاريخ القبول: 2013/02/26 تاريخ النشر:2013/03/01

الملخص:

المراهقة موضوع اهتمام على أكثر من مستوى، فهي مدار نقاش شعبي ينسج حولها الآراء، التي تعكس منظورا حاملا لموقف اجتماعي مَا. وفي ذلك الموقف مَادة يُعتبر كشفها بالتحليل سبيلا لمعرفة الفهم الذي يحيط بالمراهقة كمفهوم شائع التناول وباعتبار أنه سلوك فردي يقوم به المُراهق في سياق تفاعلاته بالمحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه.

والمقال يحاول أن يناقش مفهوم المُراهقة من منطلق أنها مسألة اجتماعية وصورة نفسانية للذات يشكلها المراهق على نفسه في ظل علاقة مراوحة جدلية بينه كذات وبين الوجود الاجتماعي تؤُدي في المحصلة النهائية إلى سلوك المُراهقة الذي يتفرد بخصائص مُحددة تختلف من مجتمع إلى آخر، ومن شخص لآخر، و كل ذلك يعني أن أدبيات المراهقة في نظم المعرفة الخاصة بالإنسان رؤية كانت أو فحصا امبريقيًا تقبل المساءلة العلمية إن في المبادئ أو الفرضيات أو النتائج، وأن تناوليات أخرى للموضوع مشروعة و مطلوبة بالنظر إلى الطبيعة الدينامية والاجتماعية للمراهقة.

Résumé:

L'attention des adolescents sur plus d'un niveau, le débat sur le populaire tisse autour d'un consensus, qui reflète la perspective de la position de l'exercice social. Dans cet article, l'analyse est la détection de trouver un moyen de compréhension entourant le concept de l'adolescence que le comportement de

l'individu d'adolescents dans le contexte de l'interaction sociale, ce qui lui appartient.

L'article essaie de discuter du concept de l'adolescence fondée sur le fait que la question sociale et psychologique de l'image de soi des adolescents pose à lui-même dans la relation dialectique entre l'autonomie et de présence sociale, conduisant à l'aérogare à la conduite des caractéristiques uniques des adolescents qui sont différentes d'une communauté à l'autre et d'une personne à une autre, et tous les Cela signifie que la littérature sur l'adolescence dans les systèmes de connaissances pour les êtres humains à voir ou à accepter le test expérimental de la responsabilité scientifique. Soit dans les principes ou des hypothèses ou des résultats, et d'autres concessions que le sujet de la légitime et nécessaire, étant donné le caractère relatif et la dynamique sociale de l'adolescent.

مقدمة:

يثير موضوع المراهقة اهتمامَ كثير من المختصين في حقول العلوم الإنسانية، على اعتبار أنه مسألة إنسان، و تتنوع المعالجة التي يحضى بها و تتعدد مناحي الاستقطاب التي يجري تحليلها، وهي تجمع على وصف المراهقة بمرحلة من النمو بالغة الحساسية بالنسبة للمراهق، لِمَا يعتريها من مظاهر توترية في مستوى السلوك وما يختفي وراءه من تعارض في مستوى قيم المراهق القلقة وأنظومة القيم الاجتماعية التي تمثل خط السواء في ثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه، هكذا تبدو أدبيات السيكولوجيا للموضوع بشكل عام و هي التي تجد أصولها وفرضياتها في غير ما فلسفة وفي أكثر من مدرسة في البسيكولوجيا الغربية، وليس عندئذ الرأي العلمي سوى مظهر رؤية تُنَصّب نفسها هيئة تنظر للعلم من الخارج ناظرة لما يجب أن يكون عليه، لذلك فإن النتائج جاءت تطابق النماذج التفسيرية التي اتخذتها مرجعية لها، ولئن كان هذا الإشكال معبرا عن أزمة المنهج في العلوم

الإنسانية عموما، فإنه في موضوع المراهقة يمثل أزمة رؤية وما يرتبط بها من عقائد ابستمولوجية و بدرجة ثانية أزمة علم بوصفها مظهر من مظاهر الثقافة السائدة. وهذا يجيز النظر إلى المراهقة لا كسيكولوجية بل إليها كسوسيولوجية؛ أي دراستها كمسألة اجتماعية تعود إلى نمط الوجود الاجتماعي السائد وإفرازاته في الآن والزمان في سياق دينامي متحرك تحت تأثير عوامل التغير الاجتماعي والثقافي ومن غير أن يعني ذلك إلغاء البعد الذاتي للمراهقة كصورة نفسانية متميزة تشيع فيها سنة الفروق الفردية.

والمراهقة في ذات المراهق صورة نفسانية ترتسم بتظافر عوامل فردية تنسجها عمليات نفسية متفاعلة وعوامل موضوعية تتعلق بنمط التفاعلات التي تربط المراهق بمحيطه وتكون عندئذ مفهوما إشكاليا وممارسة تعددية تختلف من مجتمع إلى آخر ومن زمن لآخر ومن فرد لآخر مما جعل الحديث عن نظرية للمراهقة غير دقيق، وهو ما يجعل مشروعا مساءلة أدب المراهقة لجهة أنه رؤية وهي قضية فكرية وإبداعية وإيديولوجية، أو لجهة أنه من بحوث المشاهدة التي تكتفي بنقل ما تصف من عالم المراهقين وواقعهم الاجتماعي اعتبارا من أن هذا الوسط جزئي و محدود بالزمان والمكان ولا يمكن بحال من الأحوال أن يستوفي آدمية الإنسان أي إنسان في مرحلة المراهقة التي هي بدورها نسبية مُختلف في فترتها وسن بدايتها و نهايتها من مجتمع لآخر وبين الباحثين أنفسهم.

وتحاول المقالة أن تعرض بمنهج تحليلي ناقد موضوع المراهقة من خلال فحص للمفهوم في ضوء المفهمة و بيئتها، ومن ثم الوقوف على تشكل الصورة النفسانية للمراهقة في ذات المراهق وهي الصورة التي تستوجب طرق نمط الوجود الاجتماعي باعتباره وسطا لتفاعل المراهق مع الآخرين وفيه يتشكل التصور الذاتي للمراهقة كمفهوم لأن في ذلك الوسط يُمارس المفهوم كسلوك و يُقبل أو يُنبذ، ويسكت عنه أو يعالج تربويا على نحو ما.

وتبعا لهذا الهدف يتم معالجة الموضوع من خلال مناقشة الجوانب الآتية:

- أولا: المراهقة في ظل الزوج:(تصور الذات / مسألة مجتمع).
- ثانيا: المراهقة كصورة نفسانية للذات:(إشكالية الرؤى).
- ثالثا: صورة نمط الوجود الاجتماعي في متصور المراهقة.

أولا: المراهقة في ظل الزوج : تصور الذات /مسألة مجتمع

يشيع مفهوم المراهقة في دائرة واسعة من الاستخدامات اللغوية في الميثولوجيا الشعبية بعيدا عن الدلالات التي يأخذها المفهوم في الاستخدامات الأكاديمية المتخصصة، وليس هكذا استخدام في الخطابات اليومية للناس بغير المشروع فطبيعتها التحرر من القيود القاموسية التي تحصر المفهوم في أدبيات العلم وحقولها الاصطلاحية الصارمة، و في تمنعه عن أن يقيد من الخارج ما يمنحه التجدد والثراء وقدرة الإشارة إلى السياقات السيكولوجية والسوسيوثقافية الحاضنة له كفكرة وكسلوك.

إن الكيفيات التي تتداخل أطرافها و أطوارها في صناعة الفهم لظاهرة المراهقة في ضوء الواقع المحسوس للمراهقين هي التي تستوجب الفحص لأنها الوسط الذي فيه تتميز معالم و مؤشرات الظاهرة، وهو فحص من لون الاستقصاء القائم على تكرار المشاهدة و انتظامها غير أن البحث عن المفهوم هو استخلاص وإنتاج مناط بالوعي العلمي و الفلسفي و حتى العامي، إذ بادئ الرأي خطوة تلتمس الفهم على نحو ما هي الأخرى، وشأن المراهقة كمفهوم و المراهق كواقع قابل للفحص بالمعاينة هو مسألة المفاهيم جميعها في العلوم السلوكية، ومن ثم فإن طرقه من أي مدخل نظري إنما هو رؤية من طبيعة إشكالية لما تسببه من قلق و حيرة و لما تثيره من خلاف و نقاش.

ولئن كان الأمر هو من هذا القبيل كلما تعلق الحديث بمفهوم ما في نظم المعرفة الإنسانية لما هي عليه من تعقد و تشابك و زئبقية، فإن الاعتداد بمفهوم المراهقة لتبرير غير ما سلوك جانح في الفهم العامي لم يكن دائما موفقا إذ شكل شرطيات مفهمة قد لا تساعد في التعامل التربوي مع أحداث المراهقة ومشكلات المراهقين بالصورة الناجعة؛ إذ ليست المراهقة عيبا يذم به الشبَاب ولا هي بمرحلة يُرخص فيها بالثورة على كل سلطة اجتماعيا إمعانا في التحرر والاستقلالية و إعلاء للأنا في مقابل الآخر، وفي المجتمع الجزائري يعد ذلك من مستحدث قيم وافدة من وسائط عديدة لم تكن تمثل وزنا في البُنى الاجتماعية في تاريخ المجتمع لا كواقع مَعيش ولا كفكرة ضاغطة باتجاه الخوف من المراهقة أو القلق منها و يعني ذلك أنها لم تكن مشكلة حقيقية.

انك تجد علماء النفس المهتمين بالطفولة والمراهقة يرون فيها مرحلة نمو تتميز بالتغير في النواحي الجسمية و النواحي الوجدانية والعقلية والاجتماعية وهو ما يجعل المراهق في حاجة إلى من يراعاه ويوجهه، و هذا مذهب يدفع إلى القول بان الشاب المراهق يستدمج صورته عن ذاته ليس فقط من التغيرات التي تحصَل عليها، بل من واقعه الموضوعي ومن أحكام الآخرين و آرائهم فتكون المراهقة كمسألة جزء من مدرك نفس- اجتماعي- أو ذاتي /موضوعي.

إنه وعندما تذهب بعض الدراسات إلى اعتبار المراهقة فترة اضطراب مؤثرة على الشباب المراهق و على أسرهم و مجتمعاتهم فقد تفهم أنها دعوة إلى قبولها كما هي من خلال جو يكون فيه التمرد مبَررا و التحرر من الضبط الاجتماعي عملا (محمودا)، وهنا تنشأ صورة في النفس عند المراهق أو غيره هي بنية من الأفكار تحمل وعيا عن المراهقة يمثل الوهم المتجدد و المتعاظم طرديا مع التداول اللامبالي أو المتسيب أو المتعاون أو حتى المشجع في الوسط الاجتماعي

والقاضي باعتبار المراهقة سخطا مقبولا و أفعال المراهق ذنبا مغفورا. هذا هو الذي يجعل من المراهقة مسألة ثقافة و مجتمع قبل أن تكون مسألة فرد منعزل.

وهناك إذن استنتاج يمكن إقراره و هو أن المراهقة هي قضية فرد ومسألة مجتمع و صورتها في نفس المراهق تشكيلة من الزوج ذاته: (فرد / مجتمع)، فإن علت فهما و فعلا إلى جهة الفردانية فلأن نمطا ثقافيا متحررا أو عن لها بذلك، و إن قلت وكمثت كفردانية فلأن المجتمع من نمط محافظ. و هذه لفتة هامة لمن أراد أن يتصدى لمشكلة المراهقة بالبحث فرغم أن المراهقين يشتركون في عدد من الخصائص أو الخبرات أو المشكلات، فإنهم لا يتشابهون و لا يواجهون المشاكل و المطالب البيئية ذاتها، حتى و إن كانوا إلى مجتمع واحد ينتسبون، فليست للمراهق الفقير المشكلات ذاتها كالتي هي عند المراهق الغني، و ليست حينئذ المراهقة صورة نفسانية واحدة عندهما فكل يرى فيها ذاته بعدسة ثقافية متميزة في جوانب عن عدسة الآخر حتى وإن تقاطعت في بعض المكونات العامة التي ترتبط بمفهوم الأنسنة و الانتماء الاجتماعي الواحد.

ومما يشترك فيه المراهقون البلوغ الجنسي و التغيرات الجسمية التي تصاحب عملية البلوغ و مما هو محل اتفاق أن المراهقة مرحلة صعبة و أنها مرحلة شد و جذب بالنسبة للمراهق فهو يتعامل مع مجموعة من التغيرات التي تصيبه في النواحي الجسمية، والجنسية، و النفسية و المعرفية [1] غير أن معنى الصعوبة هنا لا يقبل أنه قدر المراهق و أنه حتمية نمو بقدر ما هو وصف لنمط ما من أنماط التفاعلات الاجتماعية للمراهق في وسطه الاجتماعي باعتبار أن هذا الوسط بنية ووظيفية، إذ حين يصير التعثر الجمعي في استيعاب المراهق اجتماعيا سمة الوسط و العلاقات الظاهرة مع الشباب المراهق، تبدو المراهقة كمشكلة

1. بول ميسن و آخرون، **أسس سيكولوجيا الطفولة و المراهقة**، ترجمة: عبد العزيز سلامة، مكتبة الفلاح، الكويت،1986، ص17.

صعبة فلا توصف عندئذ إلا كصعوبة، لكن ليس هنا ما يثبت أنها كذلك كقدر محتوم واجب القبول، و في هذا الموقف نلمس أن ما ذهب إليه (**كورت لوين**) مذهبا مؤيدا فهو يرى أن ما يجعل فترة المراهقة مليئة بالمشكلات وأنها عبارة عن فترة التغير في الانتماء إلى الجماعة؛ إذ بعد أن كان ينتسب إلى جماعة الأطفال أصبح لا يريد أن يُعامل على أنه طفل و بدأ يدخل منطقة لم يتم تكوينها بعد من الناحية المعرفية[2]. و في هذا ما يدل على أن المراهقة مسألة من مسائل المجتمع إذ هي تأتي في سياقاته السوسيوتاريخية حاملة لمتغيراته و مكوناته على نحو ما تكون عليه من دينامية في الزمان والمكان.

وعلى قدر و نوع التنشئة الاجتماعية و تكامل وظيفة مؤسساتها الرسمية واللارسمية يجيء الفهم للمراهقة كمفهوم و تجيء ممارسة الشباب المراهق لأدوارهم الاجتماعية في حياة المجتمع الذي ينتمون إليه.

وفي جميع الحالات فإن المراهق بحاجة إلى رعاية تربوية تكفل تنشئته على النحو المرغوب اجتماعيا، يكون من شأنها أن تقيه الانحباس في مجموعة من القيم المتصارعة من الطفولة والمراهقة لأنه بمفرده قد يفشل في أن يتمكن من أن يحمل إلى مراهقته منظومة من القيم والمعايير تقيه الأخطاء والأخطار وهذا ما ينعكس على إدراكه لمستقبله مما يجب أن يحققه من مثل و قيم، في ضوء هذا التصارع والتناقض بين القيم والمعايير قد يدخل الشاب المراهق حالة من فقدان الاتزان. والتوتر الذي يزداد حدة كلما كانت بؤرة القيم و الآثار الناجمة عن تصادمها ذات مركز حاسم في حياته.

إن النظر إلى الذات من خلال الوسط الاجتماعي / الثقافي، و النظر إلى هذا الأخير من خلال الذات يمتزجان في كل مركب في شخصية المراهق فتبدو غير

2. فيصل محمد خير الزراد، **مشكلة المراهقة و الشباب في الوطن العربي**، دار النفائس،ط2،بيروت، 2004، ص36.

مستقرة وانفعالية، فيكون تصرفه مترددا متراوحا بين الثورة والتمرد والخجل، في نزوع إلى العدوان و صراع مع الصورة النفسانية التي يرى فيها المراهق مراهقته، وفي أي شكل تجسدت كالصراع الدائم مع الاتجاهات و القيم و المثل العليا، وكأساليب ممارسة الأنشطة الاجتماعية، ومن نتائج المراوحات الجدلية بين مجموعة القيم و الاتجاهات والمثل القلقة والوسط الذي أنتجها تتحدد المواقف التي يشّيد بها المراهق الحياة بشكل دينامي و سريع التغير الشيء الذي يفسر صراعه مع واقعه، مع أسرته ومنظومة القيم والمعايير الاجتماعية السائدة وهذا هو منشأ مشكلات الشباب المراهق الذي يحتاج إلى فحص علمي و إلى استراتيجيات تربوية تعمل على تحقيق التوافق في حياة اجتماعية ميسورة تكون طبيعيا حاجات المراهق فيها محفوظة على نحو منسجم مع فطرة الحياة ذاتها.

والواجب إذن إرشاد المراهق على أفضل الصور لتجنيبه ذلك المعاش النفسي الاجتماعي المتناقض و التوترات النفسية و الاجتماعية و الفكرية والأخلاقية التي تنشأ على إثره وهذا دور تربوي بامتياز وهو ما يفترض أن تنهض به تربية مؤهلة – لا تربية تائهة أو ضالة - و" ..... **سواء أكانت تتم في البيت أو في المدرسة أو في ساحة الملعب ....يجب أن تكون صالحة لاستخدامها في هذه العملية الدائبة، لأن التربية التي تستهدف إعداد النشء لحياة لم تعد قائمة لن تساعد الحضارة على البقاء .....**"[3]. وليست ثمة من تربية قادرة على هذه المهام بلا خلل أو نقصان سوى تلك التي تجعل الوحي مصدرها و العقل أداتها و الواقع الاجتماعي و الطبيعي مُستهدفها وطاعة الخالق أكبر غاياتها، ويتحدد مقدار التوفيق الذي يحالفها بمقدار اقترابها من تلك الخصائص.

[3] عبد العلي الجسماني، **سيكولوجية الطفولة و المراهقة وحقائقها الأساسية**، الدار العربية للعلوم، ط1، بيروت، 1994، ص348.

وفي مرحلة المراهقة يبحث المراهق عن ذاته، فهو أحس بها في طفولته المبكرة، ولكنه فقدها في الأسرة وجماعة الرفاق و في الولاء لهما ، فتصبح مشكلة المراهق من جديد البحث عن هويته ، وتكون صورة المراهق عن ذاته متوقفة على الآخرين ومدى تقبلهم أو رفضهم له، وفي ثورة وتمرد المراهق على السلطة الاجتماعية ما يفسر مشكلة البحث عن الهوية و الذات لإنتاج الصورة النفسانية المميزة وتحقيق الاستقلال الذاتي، وما يوضح ذلك هو العديد من الأساليب التي تكشف عن قلقه وبحثه عن هدف لم يصل إليه، فهو إذن يبحث عن ذاته و لم يجدها بعد.

وتتحدد الذات في نمط أدائها وتصبح ذات أداء محدد تعبر عن طبيعة الشخص ويطلق عليها شخصية الفرد[4]. و المراهقة عندئذ مرحلة نمو يتطلع فيها الشاب بلوغ مرتبة الاستقلالية والتميز و التفرد من خلال بلورة رؤية عن ذاته تتشكل من نمط الوجود الاجتماعي الذي ينشأ فيه وهو في سعيه إلى هذا الهدف يحتاج إلى شروط حاضنة وتربية راعية تستقيم معها أنشطته ومواقفه وتحكمه في نمط علاقاته مع الآخرين المحيطين به.

وإلى ذك تشير كلمة "**المراهقة**" في اللغة العربية فالفعل "**راهق**" يعني الاقتراب من الشيء، فراهق الغلام فهو مراهق أي قارب الاحتلام ورهقت الشيء رهقا أي : قربت منه و المعنى يشير إلى الاقتراب من النضج و الرشد[5]؛ وهي بهذا المعني تمثل خط نمو حتمي لكل إنسان لا مناص له منها وما يصاحبها من مظاهر هو كذلك من طبيعة النمو، أما المشكلات التي تثيرها في المستوى النفسي و الاجتماعي فمسألة تربية اجتماعية وتوجيه وإرشاد.

---

4. سعد رياض، **الشخصية أنواعها ،أمراضها وفن التعامل معها**، القاهرة، مؤسسة اقرأ، 2005، ص52.

5. عبد العلي الجسماني، **سيكولوجية الطفولة و المراهقة و حقائقها الأساسية** ،ص119.

والمراهقة في علم النفس تشير كمفهوم إلى الاقتراب من النضج الجسمي و العقلي والنفسي و الاجتماعي، و لكن دون بلوغه فهي عملية تستمر حوالي عشر سنوات تقريبا، ومن ثم فليست المراهقة هي البلوغ؛ أي القدرة على الانسلال، إنما هي تدرج نحو النضج و ليس البلوغ سوى واحدا من جوانبها وهو زمنيا يسبقها.

ثانيا: المراهقة كصورة نفسانية للذات (إشكالية الرؤية)

المراهقة كصورة نفسانية هي رؤية من الداخل تتشكل عند الشاب المراهق بعد سلسلة من العمليات المتفاعلة بين مكونات الشخصية بشكل دينامي، وهي بالتالي تصور يبنيه المراهق عن نفسه في هذه المرحلة العمرية، وعملية تكوين تلك الصورة النفسانية عملية معقدة بالنظر إلى العناصر التي تتدخل فيها على مستوى الشخصية و المجتمع الذي تنتمي إليه.

والتصور عند المناطقة يعني" **إدراك العقل موضوعه في ماهيته دون إثبات أو نفي**"[6] وهذا يشير أن إنتاج الصورة النفسانية للمراهقة عملية إدراكية ونشاط عقلي . وحسب معجم مصطلحات التحليل النفسي فأصل كلمة تصور (**تَمثُل**) يتضمن التعبير الفرنسي"**Représentation**"، واللفظة ترجمة لكلمة ألمانية مكونة من اسمين مختلفين ويستخدم بدلهما كلمتين متقاربتين، فكلمة " **تَمثُل**" "**Représentation**" تُترجم للكلمة الألمانية "**Representaz**"، و هي تعبير ألماني من أصل لاتيني تقترب من معنى التفويض، ومصطلح "**Varslelluny**"، وهو مصطلح فلسفلي يشابه كلمة تصور في الفرنسية التقليدية، وهكذا فالمصطلح في الألمانية يدل على ما يمثل **(أي ما يمثل النزوة في هذا المقام)**، وهذا معنى قريب من تعبير ممثل تصوري[7]. وما يعنينا في هذا المقام أن الرؤية التي

---

6. جول تريكو ، **المنطق الصوري**، ترجمة محمد يعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1966، ص63.

7. لابلانش ج ، بونتاليس .ج ب، **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، ترجمة مصطفى حجازي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1985، ص ص 489-490.

ينظر بها المراهق إلى نفسه تتضمن مشاركة بين الذات والموضوع، وينشأ عنها صورة عن الذات تُمثّلها و تشير إليها على نحو ما ، وحتى مع الاختلاف المدرسي في النظر إلى المفهوم فانه يظل حاملا له ضاما تنوعا لتعريفات في (كل) تصدق فيه في النواحي التي تستهدفها منه بحسب الفلسفة التي تتخذها زاوية للنظر وبحسب العقيدة الابستيمولوجية التي تؤمن بها .

وقد تحدث "**فرويد**" عن التصورات اللاواعية ن و لم يكن استخدام التصور عند " **فرويد**" بمعنى استرجاع لإدراك سابق حول موضوع ما أو تصور ذاتي حول موضوع ما لكن باعتباره كجانب من الموضوع الذي يدون في الأنظمة الذكروية[8]. وعند "**بياجيه**" فالتصور ميكانيزم يستعمله الطفل في نموه المعرفي، ويسمح له بتفسير ظوهر المحيط الخارجي من خلال أفعاله و تجاربه السابقة، فالتصور هو سيرورة مستقلة عن كل تأثير للمحيط و المظهر الاجتماعي لا ينشا إلا متأخرا [9].هذا و قد عرف "**بياجيه**" "التصور" بأنه: " **الصورة الذهنية أو الاستحضار الرمزي للموضوعات و الوقائع الغائبة بهدف التجريد**"، و "التمثل" هو: " **تعديل للمعلومات الجديدة بها يتناسب مع البنية المعرفية للفرد، ويتم من خلال تحويل الخبرات الجديدة إلى خبرات مألوفة بتعديل الوارد منها من البيئة و المحيط**"[10].

إن فحص آراء الباحثين ومختلف الاختصاصات لموضوع التصور يحتاج إلى دراسات مستقلة قائمة بذاتها وما يعني هذه الدراسة هو أن التصور عملية متطورة يعرف بها المراهق ذاته و أفعاله راسما بذلك لذاته صورة يرى فيها من هو

---

8. المرجع السابق نفسه، ص180.

9. MAACHe.y, Ghortim.set kouoia Aicha, **les Représentation sociales, un concept an carrefour de la psychologie sociale et e la sociologie**, les editionde l'université mentori, constantine2002,p5

10. أهكار فتيحة، **تمثيل التلميذ للخطاب الفلسفي و العوائق التي تعترضه في المناطق النائية**، مجلة علوم التربية، المجلد الثالث، العدد20، الدار البيضاء، المغرب،2001 ،ص28.

في الآن و في المستقبل، صورة غير معزولة عن الواقع الاجتماعي الذي تنتمي إليه، وهي بالتالي ليست صورة جامدة أو متحجرة لأنها قابلة للتطور و التغيير على مستوى المراهق كفرد وعلى مستوى الجماعة الثقافية التي يعيش فيها وكلما كان الانسجام بين الفرد و المجتمع ضمن منظومة قيم مُرضية لهما كلما خفت مظاهر العنف و العدوان و الثورة من هذه المرحلة العمرية و الأمر يتوقف على قوة القيم ذاتها لجهة الفاعلية و قدرة الإشباع المادي و المعنوي التي يمكنها تحقيقها.

إن المراهق و في سعيه باحثا عن ذاته يستهوي رأي الآخرين فيه كشخص، في أفكاره و عاداته وفي آرائه وأحلامه، خصوصا تلك التي تشجعه بلا عتاب وتقبله وان كان على خطأ وتشاركه أوهامه و إن كان الأمر يبدو على هذا الشكل فتتشكل صورة في نفسه عن ذاته ضالة إذ ما يلبث أن تتكشف له الحياة بصعابها فيصيبه جراء ذلك الصدمة والإخفاق مما يكون له انعكاس على صحته النفسية والجسمية و على نمط العلاقات التي يقيمها مع الآخرين، وهنا ينشأ أكثر من نموذج عن المراهقة كصورة نفسية لا متوافقة تختلف باختلاف الأفراد و البيئة الاجتماعية التي ينتسبون إليها.

فكأن الصورة النفسانية للذات في مرحلة المراهقة تتحدد بسمات وصفات هي حسب"**ألبورت**" تسمى الشخصية أو التطلع الأنسب أي التطلع إلى المستقبل والعمل على تحقيق أهداف مهمة يضعها الفرد ليعزز بها نفسه، ووضع "**ألبورت**" معايير ينظر في ضوئها إلى النمو السوي للشخصية أهمها : امتداد الإحساس بالذات و الروابط الوثيقة بالآخرين و تقبل الذات و الإدراك العقلاني للواقع و النظرة الموضوعية للذات وأخيرا فلسفة مقبولة حيال الوجود ككل[11].

وليست تلك المعايير سوى مكونات متفاعلة لبنية واحدة تمثل صورة الذات عند المراهق كما يراها من الداخل متأثرا بما شكلها من العوامل الداخلية و

11. عبد العلي الجسماني، مرجع سابق، 2000، ص39.

الخارجية ولذلك وجب أن تقوم التربية و الإرشاد بدور في تشكيل القدرة الواعية التي تبنيها بشكل يجعل المراهق يعيش ميسرا على الآخرين في جو يَسِر الطابع تنساب فيه التفاعلات الاجتماعية في حركة و انسجام ، بشكل قريب مما يذهب إليه "**كولي Cooley**" من أن: " **المجتمع مرآة يرى الفرد فيها نفسه**" الذي منه اشتق مفهوم الذات المنعكسة أو كما يصفها " **The looking glass self**" والتي حسب رأيه تتضمن تصورنا فيما نبدو عليه من وجهة نظر الآخرين و حكمهم على تلك المظاهر، و شعورنا بالزهو و الضآلة جراء ذلك[12]. و هكذا يبدو أن تشكل الصورة النفسانية تتأثر بالآخرين على طريقة تلعب فيها الفروق الفردية من جهة و العوامل الاجتماعية و الثقافية من جهة أخرى أدوارا بالغة الأهمية يمكن أن تكون إحدى صورها ما ذهب إليه " **دوفلار Defleur** " في نموذج يوضح العمليات النفسية للتأثر بالوسيلة الإعلامية و التي تجعل الطفل شبيها بـ" **العبد**" كما في الخطاطة الآتية[13] :

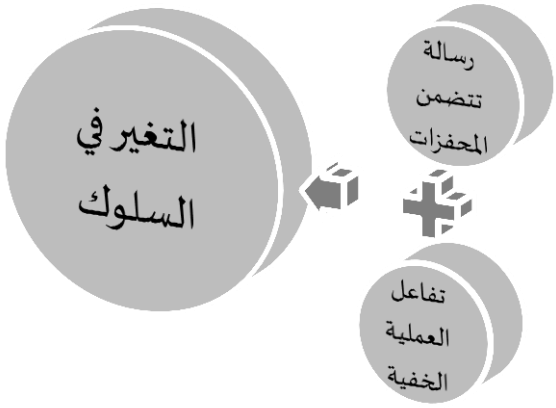

12. انتصار يونس، **السلوك الإنساني**، دار المعرفة الجامعية، 2004، ص154.

13. فرشان لويزة، **البيئة المدرسية و سلوكات التلميذ العنيفة**، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 15، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2008، ص 150

والشكل على ما يمثله من بساطة و اختزال للعمليات النفسية المتأثرة بالإعلام و من ثم المنتجة للسلوك فإنه لا يروي القصة كاملة، وبالتالي فإن مكونات النموذج المعروض – وبالفحص– يمكن أن نستل منها متغيرات كثيرة أخرى و المهم هنا أن الصورة النفسية للمراهق و ما يلحقها تباعا من سلوك تتوقف على تفاعل كثير من الأنشطة النفسية شعورية و لا شعورية -حسب الفرويدية- وسلوكية ، وهي مجال يصلح للاستكشاف و التقصي بالمشاهدة و التحقيق في غير ما دراسة، وغير بعيد عن تلك الأطروحة يشير "**كولي**" إلى مفهوم الذات الاجتماعية أو " **النحن**" موضحا أن الشعور"**بالنحن**" يتوقف على عضوية الفرد داخل جماعة تتصف بالتماسك والتعاون ووجود حالة من التعارض بين الجماعة و الجماعات الأخرى تدفع باتجاه تقوية التماسك و عامل آخر هو الشعور بما يمكن أن يكون شبيها بالملكية المتبادلة بين الذات و الذوات الأخرى ، مما يؤدي إلى اندماج الذوات المختلفة حتى تصبح ذات الفرد هي حياة الجماعة [14]. و لأن المراهق عضو في أكثر من جماعة اجتماعية فإن الصورة التي يشكلها عن نفسه تقوم بدورها على الشعور بـ" النحن" و هو شعور يتأثر بدرجة الارتباط بالجماعة وَثَاقَةً ووُثُوقًا.

إن الصورة النفسانية للذات لدى المراهق ليست شأنا فرديا خالصا إلا لجهة التشكيل الذاتي من خلال سلسلة من العمليات النفسية ذات الصلة انفعالية كانت أو عقلية لكنها لا تحصل من فراغ بل في سياق نمط الوجود الاجتماعي الذي يغذي تمثلها لدى الشاب المراهق ، ومن ثم فإنها تنطبع بوصمة الثقافة المجتمعية التي تظهر آثارها بوضوح في أدبيات علم النفس الغربي التي

14. انتصار يونس مرجع سابق ،ص ،ص :154،155

حملت المزاج و العقلية الغربية وواقع الوجود الاجتماعي "الغربي" بوصفه معطى حضاري في الآن و الزمان .

هكذا تبدو أن المراهقة يمكن أن تجد المناعة الوقائية التي توفر الصحة النفسية للمراهق الشيء الذي يوفر بدوره الصحة النفسية للصورة النفسانية للذات التي ينظر من خلالها المراهق إلى نفسه. إلا أن المناعة الوقائية لا تتحقق إلا بوجود الأخلاق و مبادئ الفضيلة التي لا تكون قوية إلا إذا كانت مستندة إلى وازع الدين فقد قال "**الراجحي**": "**الصحة النفسية و الصحة الدينية مرتبطتان**"، و هذا الترابط قام نتيجة أن الدين وحده هو القادر على حفظ حقوق النفس و حقوق ما جاورها من النفوس من الرذيلة و مسوغاتها من الشرور ومبيحاته ، وبالتالي حفظها مما ينشأ فيها من وخز الضمير و قلق الإثم و فداحة جرائمه [15]. و قد ثبت في نماذج حية من تاريخ المسلمين كيف أن المراهقة لم تكن أزمة بل نعمة طالما أنها تحقق قدر الله المحتوم في خلقه إذ هي امتثال لسنن النمو الإنساني و حين وجدت لخصائصها تفهما و تحكما من المجتمع نَشّأَت جيل من الشباب بلغ مراتب القيادة في العلم و الجهاد، وكانت بالتالي الصورة النفسانية للذات للشاب المسلم على قدر عظمة المجتمع الذي تخرج منه و على القدر الذي تحرك في الأرض من المعاملات استلهاما من الوحي فقها و تطبيقا.

ثالثا: صورة نمط الوجود الاجتماعي في متصور المراهقة

تلعب عوامل متعددة في تحديد المدة التي تسمى المراهقة، و بالتالي فإن هذه المدة الزمنية تختلف من مجتمع إلى آخر، و تكون في بعض المجتمعات قصيرة و في بعضها الآخر طويلة، و هذا ما يعني أن المراهقة مسألة مجتمع بما فيه من تاريخ وجغرافيا و أنماط تفكير وعيش، وليست ظاهرة ينسحب وصفها على كل

15. محمد التومي، **نحو بسيكولوجية إسلامية – العقد النفسية و موقف الإسلام منها-** ، شركة الشهاب، الجزائر، ص ص، 103 104.

المجتمعات والأفراد فلا يستثني أحدا؛ فالمراهقة في الغرب هي نتاج ثقافة و علوم الغرب سواء تم النظر إليها كسلوك أو كمفهوم، وبالتالي فإن الذي صيغ حولها من نظريات إنما يعكس طابع الحضارة الغربية و يصف نفوس وأمزجة الغربيين و لا يجوز أن يؤخذ كما هو لتوطينه في واقع اجتماعي مختلف عن مجتمعات النشأة و التطور، كما يمكن التأكيد على أن المراهقة بالأمس ليست هي مراهقة اليوم، لأنها لا تلقى نفس النظرة ولا نفس المعاملة فهي إذن ظاهرة دينامية متحركة و تحتاج إلى قراءة ديناميكية متحركة أيضا بعيدا عن فرض موقف ما من مواقف علم النفس الغربي على تعدد مدارسه والاختلاف بين روادها و مريديها.

إن الحديث عن المراهقة هو حديث عن الإنسان حين يقبل على بلوغ الحُلُم والقدرة على التميز و بالتالي وجوب التكليف الشرعي، ومن هذا الأساس فهي مرحلة حاسمة في حياة الإنسان وحياة الجماعة البشرية لأنها تؤكد على البدء المسؤول في حركة الاستخلاف في الأرض وما تقتضيه من عمل وإيمان وعلم لبناء الحضارة والعمران، فعوض العبثية و الإباحية وثورة الشهوة و الاستقلالية و رفض القيم الضابطة؛ فإن المراهقة هي نقطة انطلاق نحو التعمير و فعل الطاعات و الفضائل ولَكَم هو واضح من فرق مابين أن تكون الحياة عقيدة و جهادا يأخذ بنمط الوجود الاجتماعي على الشكل الباني للآدمية الكونية في تنوعها الثقافي و الاثني، و بين أن تكون الحياة الاجتماعية صراع و جريمة وجنس كما هو الوسط الاجتماعي في الغرب عموما، و في الأوساط الاجتماعية التي حذت حذوه، و ليست المراهقة في الوسط الأول بالمشكلة و لا يمكن أن تكون بالتالي بؤرة لتفجير المشكلات في المستوى النفسي و الاجتماعي و الأخلاقي لذلك فإن وصفها بالثورة و المشكلة وما سواها من النعوت جدير بأن يحصر في نمط الحياة الاجتماعية التي أنتجت المراهقة كمشكلة و أن يلحق بالفلسفات التي زكت ذلك الرأي حتى صارت

المراهقة صورة نفسانية لدى المراهق حاملة لتلك الفلسفات بالتمثل و الإستدخال عبر وسائط التأثير و التلقي التي غَزت الُدور و المؤسسات و البيوت. .

إن الشاب المراهق الذي يعرف من الوسط الاجتماعي الذي ينشأ فيه أنه مكلف و أنه مسؤول في الحياة كلها و يرى غيره على هذا الموقف يكدون و يجتهدون ويتسابقون في فعل الخيرات، لا تكون المراهقة عنده ثورانا و تمردا و إطلاق العنان للنزوة و الغريزة، فالمهمة المنوطة به هي الخلافة في الأرض و هي " المهمة انتدب الله إليها الإنسان و جعل تحقيقها تحقيقا للغاية من وجوده فهي تتضمن مسؤولية عظيمة، تتمثل في تمكين الإنسان من أمانة الأرض و ناصية الكون، وتسخيره له ليكون سيدا عليه مالكا لمفاتيحه متصرفا في شؤونه، مستغلا خيراته منفذا فيه إرادته بالتعمير والتغيير، و الترقية و التطوير". [16] إن الشباب الذي يأخذ منظومة قيمه من مجتمع غايته تلك التي يستوجبها دوره في الاستخلاف، لا يعني أنه يضحي بحاجاته أو أنه لن يبتلي بمشاكل لأن ذلك من طبيعة الحياة ذاتها و من السنن أن يعمل و يجتهد للتمكن في الأرض؛ إذ ليس الاستخلاف هبة أو محض تشريف بل هو عمل و مسؤولية و تكليف من خالق الكون و الإنسان.

و يمكن الإشارة إلى حاجات المراهقين في الآتي :

- الحاجة إلى الاستقلال الذاتي للتخلص من الاعتماد على الكبار كما كان في مرحلة الطفولة.
- الحاجة إلى تحقيق أبعاد الذات.
- الحاجة إلى الانتماء.
- الحاجة إلى الإتقان ليؤكد ذاته.

16. محمد زرمان، **وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم – دلالتها و أبعادها الحضارية-** ، ط1، دار الإعلام، عمان، الأردن، 2002، ص33.

- الحاجة إلى التخلص من المخاوف.

- الحاجة إلى العطف والمحبة.

و سبب ذلك أن المراهق يتحول من الطفولة إلى مرحلة جديدة تدفعه إلى تأمل الماضي و استشراف المستقبل برسم من خياله [17]. فهذه الحاجات و غيرها لا تشكل حالة مرضية إن هي وجدت نظما اجتماعية تضمن لها إشباعا لا يضر بالمراهق و لا بالمجتمع، ثم أن تلك الحاجات و سواها ليست رهينة مرحلة عمرية بذاتها بل هي حاجات إنسانية تتطلب تكفلا و تصريفا في جميع مراحل العمر و إن بأساليب و مضامين أخرى، و لذلك لا يجوز بحال عدها مُقابلة للسواء إلا بمقدار ما ينحت لها من الحديث المغالي و الفكر الموالي لهذه الفلسفة أو تلك.

وهكذا فإن القول بأن المراهق يعيش زوبعة نفسية تجعل العلاقة بينه و بين المحيطين به من الكبار متباعدة، و أن المراهقين بحكم تكوينهم النفسي و الفسيولوجي و الاجتماعي الجديد تجعلهم يفكرون و كأنهم في عالم آخر الشيء الذي يوسع الهوة بين الطرفين لأن لكل منهما معاييره التي يلتزم بها، هو قول لا يمثل قاعدة عامة. فليس ذلك السلوك و ليست تلك المعايير المتنافرة سوى إنتاج مستند إلى الوجود الاجتماعي و من طريقة العيش المشتركة صدر.

ويسوق الباحثون انطلاقا من ملاحظاتهم مجموعة من المشاكل التي تهيمن على تفكير المراهقين و أبرزها تلك التي تتصل بالصحة و النمو و بالشخصية و بالمكانة الاجتماعية و التحدث إلى الجنس الآخر، وكذلك تلك التي تمس المعايير الأخلاقية و التي لها صلة بالأجواء الأسرية، و قد تظهر مشكلات في المدرسة مثل عدم القدرة على التركيز، والتخوف من الرسوب، أو حتى ما ارتبط بالتفكير بمهنة معينة و المراهق في كل ذلك إنما يعكس صور تفاعله مع محيطه الاجتماعي، و يتصرف انطلاقا من أنماط السلوك الجمعي محافظا عليها لإثبات

17. عبد العلي الجسماني، مرجع سابق، ص336.

ذاته أو متمردا و لنفس الغاية، و هكذا فالمراهقة و إن بدت شأنا فرديا فإنها في الجهة المقابلة مسألة مجتمع و ثقافة أيضا.

و في الجزائر فإن المراهقة تأخذ أبعادا سلوكية خطيرة أحيانا و في المؤسسات التعليمية ففي سنة 2000 و في دراسة عن العنف لدى التلاميذ بأكاديمية الجزائر الوسطى و في محافظة الجزائر الكبرى تبين أن 80% من السلوكات العنيفة في الوسط المدرسي هي من النوع اللفظي الذي يشيع بين التلاميذ أنفسهم، وأن 20 % تشمل العلاقة بين التلاميذ و معلميهم [18]. و في توسع هذه السلوكات على هذا النحو و بهذا الحجم ما يشير إلى ارتخاء أدوات ووسائط التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعي الشيء الذي يؤسس للمراهق الشروط المحفزة للجنوح و العنف و حتى الإجرام، و تكون المرحلة العمرية التي يمر بها إما عامل إفلات من العقاب أو ظرف تخفيف عند المساءلة القضائية و تلعب العوامل الثقافية دورا في تكوين الفرد و إعداده و قد تنقل إليه المكونات الثقافية من خلال التفاعلات بين الفرد و المجتمع أو عن طريق هيئات و مؤسسات المجتمع أو اتصاف ثقافة المجتمع ببعض الخرافات والعادات الحاملة لرموز العنف والنرجسية والسيطرة، كما هو حال المجتمع الأمريكي الذي تقع فيه جريمة سرقة كل أربع ثواني وتسجل مختلف أنواع الاعتداءات في كل ثمان وأربعين ثانية، هذا ويؤكد " **باجيلو Pajilo (1984)**" أن انتشار ظاهرة العنف في المجتمع يشجع الأطفال على أن يتصرفوا بطرق عنيفة ويرى "**حناح Hannh**" أيضا أنه لا توجد سلطة إلا وتقوم بالعنف مما يدفع باتجاه ردات فعل عنيفة[19]. فالتعلم من المجتمع على نحو تلقائي أو مقصود إذن من شأنه فتح وتحديد ضروب التصرف

18. فرشان لويزة، مرجع سابق، ص143.

19. المرجع السابق نفسه،ص - ص 147- 149.

الذي يلحق بالمراهقة ويسمح للمراهق أو يمنعه منه، وفي تلك الأطروحات ما يؤكد على اجتماعية المراهقة لا على سيكولوجية معزولة قائمة بذاتها.

خلاصة:

حفلت دراسات المراهقة بكثير من النتائج، التي أبرزت مظاهر هذه المرحلة من النمو في حياة الإنسان على المستوى النفسي و الاجتماعي و الجسمي، و اتضحت منها حقائق ما يطرأ من نمو في تلك الجوانب من شخصية المراهق و هي لاعتمادها على المشاهدات المنتظمة تمكنت من توصيف تفصيلي لها في بيئات اجتماعية مختلفة هي البيئات التي مثلت مجالات البحث وفضاءات المعاينة، غير أنها حين التفسير التزمت رؤية وورطت اختيارات فلسفية و إيديولوجية و جعلت خلاصاتها قابلة للمساءلة لأنها ليست قواعد يمكن تعميمها على نحو قواعد العلم الطبيعي .

فالمراهقة مفهوم نسبي يختلف من ثقافة إلى أخرى و بالتالي فإنه يعتمد على السياقات التاريخية و الاجتماعية التي تحمله على معان محددة ليست هي نفسها في كل مجتمع و بالتالي فإن البنية السلوكية للمراهق تجسد المفهمة السائدة في المجتمع لمسألة المراهقة فإن هي كانت تفسح رقعة الإباحة إلى حدود واسعة في القول واللبس و الفعل امتد إلى ذلك سلوك المراهق و زاد، و إن ضاقت حدود إباحة إلى حد يشل الحق الطبيعي للإنسان زهق المراهق و تمرد و نفر، وإن توسط و اعتدل كانت المراهقة فهما و ممارسة في تلك الحدود.

ولذلك فإن صورة المراهقة في نفس المراهق شأن تنشئة و تلقين و تربية و توجيه سواء اتخذ طابعا قصديا أو لا قصديا لأن صورتها تمثل و استدخال لعناصر الثقافة المجتمعية السائدة بكيفية ذاتية من خلال سلسلة من العمليات النفسية، و هكذا فإن أعلى الوجود الاجتماعي (من عادات و تقاليد و أنماط تفكير و سلوك) من شأن الغريزة جاءت الصورة النفسانية للمراهق في الذات صورة

غرائزية، وإن كان العقل هو مستهدف الثقافة و الوسط الاجتماعي كانت الصورة النفسانية مُعْلِيَة له، وإن سادت الروح والإيمان كانت الصورة النفسانية على نحو في نفس المراهق.

إن المراهقة ليست أكثر من مرحلة نمو ينتقل فيها الإنسان من الطفولة إلى طور يلحقه بالكبار، وهي لأنها مرحلة مفصلية تحتاج إلى نمط من الوجود الاجتماعي التربوي يقدر على التكفل بحاجات الغريزة و العقل و الروح معا باعتدال وإشباع من غير إفراط ولا تفريط و في وجوه نافعة للمراهق و لمجتمعه، الشيء الذي يجعل من المراهقة مسألة مجتمع أكثر منها مسألة فرد، بالرغم من أنه لا يمكن الحديث عن هذين الطرفين و كأنها أضداد بل ضمن إطار كلي واحد.

إن الذي يبدو هو أن المراهقة كحالة معيشة على مستوى المراهقين ، و على مستوى المجتمع كمسألة من جانبين: (فكرة – وسلوك). وهي مكونات تتفاعل معا و ينبثق عنها سلوك المراهق كفرد في الجماعة التي ينتمي إليها و يُظهر الشكل الآتي علاقات التفاعل بين العوامل المؤثرة في تشكل صورة المراهقة لدى المراهق و ما يلحق ذلك من سلوك فردي في دائرة المجتمع الذي ينتمي إليه :

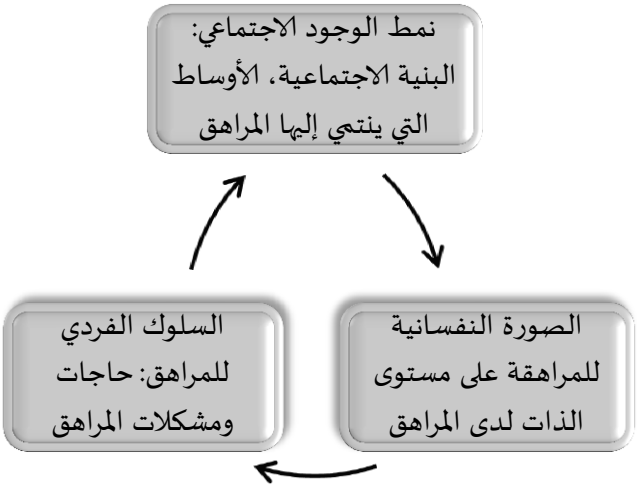

هذا و إن كان مقبولا اعتبار البيئة الاجتماعية الإطار الأول لنشأة المراهق و الوسط الذي تشرب فيه القيم الثقافية المنظمة للحياة عموما و المحدد للمكانات الاجتماعية و الأدوار، فإن ذلك لا يعني استبعاد البعد الذاتي الذي هو بدوره يؤثر على تصور المراهق و يسهم في تشكيل صورة نفسانية له تحمل رؤيته لذاته و فهمه لواقعه و طموحه في المستقبل.